بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله وصحبه .

تقـديم

فى تاريخ البلاغة العربية ، وأشهر كتبها ومؤلفيها

من الظواهر الواضحة فى تاريخ العلوم العربية أن فنون البلاغة كانت من أبطئها استقلالا فى التدوين ؛ إذ لم يجتمع شتات مسائلها ، ولم تتضح تمام الاتضاح مصطلحاتها ، ولم تستقل بكتبها ، إلا بعد أن قطع غيرها من ذلك شوطاً بعيداً ، وقارب الغاية من الكمال .

وليس معنى هذا أن مسائل البلاغة كانت آخر المسائل اللغوية اقتراباً من دائرة البحث ، ولا أن المشاكل التى تحفز إلى مدارستها لم تبكر بالظهور ؛ فلعلها أن تكون من هذه الناحية أسْبَقَ إلى إثارة الفكر ، وأبعث على التأمل والبحث .

وأغلب الظن أن تريُّثَ استقلالها ، وبطء تشخصها فى كتبها ، إنما يرجع إلى تنازع الطوائف العلمية المختلفة جوانبَ البحث البلاغيّ ، فكانت كل طائفة تُعْنَى بجانب يضيق أو يتسع بمقدار ماتمس إليه حاجته فيما اختص به من فروع العلم ، إلى أن تهيأ بهذه الجهود المبعثرة أن تتضامّ ، ويجتمع شملها فى كتبٍ تستقل بها وتتميز بعنوانها .

وقد مرّت البحوث البلاغية فى أطوار متباينة ، وتنقلت فى مواطن مختلفة قبل أن يُتَاح لها هذا الاستقلال المميز .

وأول ما كان من ذلك تلك الملاحظات النقدية التى تعبر عما كان يشعر به الموهوبون من استحسان أو استهجان عند سماع الشعر فى محافل الإنشاد .

ولا نستطيع تحديد هذه الأولية ، فقد كانت أبعد فى القدم من وَعْى التاريخ

المسجل ؛ لأن النقد من أقدم الظواهر الفكرية ، ووجوده يكون دائمًا فى أعقاب العمل الذى يتناوله ، ومعنى هذا أنه منذ ظهرت بواكير الإنشاء الفنى أعقبتها بواكير النقد ، وهذا مالا يستطاع تحديده ، ويغنينا عنه أن أقدمَ ماوصلنا من النصوص الأدبية جاء ومعه كثير مما دار حوله من النقد والتقويم .

وإذا كانت معارف الجاهليين وجهودهم الفكرية – ومن بينها نقدهم – قد سبقت على التدوين ، وذهب أكثرها فى مدارج النسيان ؛ فإن الرواية قد خلَّصت من أيدى الضياع نماذجَ من نقدهم ، وأخبارا من تاريخ أدبائهم ، نستطيع أن نتبين على ضوئها :

ا – أن النقد كان ظاهرةً قوية الظهور فى حياتهم الأدبية .

ب – وأنه تتبع النتاج الأدبى وتعقبه ، حتى اضْطُرَّ كثير من الشعراء إلى معاودة القصيد بالصَّقْل والتهذيب قبل إظهاره للناس ، ومن أجل ذلك سموهم « عبيد الشعر » .

حـ – غير أنه لم يكن أكثر من عبارات مقتصدة مقتضبة ، تنأى غالبًا عن التحليل والتعليل .

وكانت هذه العبارات تدور أكثر ماتدور حول اختيار اللفظ الدقيق فى إفادة المعنى المناسب للمقام ، ولكل ذلك أسبابه المناسبة من حياتهم ؛ فمفاخرتهم بالبيان تحملهم على نقده وتمحيصه ، وانطباعهم على الفصاحة وسلامة الملكة يسدُّ عليهم كثيراً من مزالق التعبير ، وبداوتهم تغنيهم بنقاء فطرتها وصدقِ شعورها عن التعمق والتنقير .

* * *

على هذا النحو انطوى العهد الجاهليّ كله ، ثم جاء الإسلام ، فلم يسرع التغيير إلى مظاهر النقد كلها ، بل ظل أكثرها على وصفه السابق إلى حينٍ ، من حيث إنه ظل بددا من الملاحظات المتنوعة بتنوع أسبابها دون أن يُنَسِّقها تنظيم أو ترتيب ، على الرغم من تضاعف نشاط النقاد فى إبداء تلك الملاحظات . ومن

حيث إن ظاهرة التدوين تريثت بمقدار ماستأنتها طبيعة المجتمع الجديد؛ فلم تدارك آثار النقاد بالتقييد، ووكلتها إلى آذان من الرواة تعى كل مايقال، وتنزله من الصدور فى حرز حريز، وندع حديث النقد إلى حين.

غير أن الإسلام ـ حين جاء ـ وافانا معه عامل جديد خطير؛ إذ كان أقوى ماأثر فى حياة اللغة العربية وبعث علومها إلى الوجود، ونشأ حوله من الأسباب القوية مايكفى أقله لإثارة العلماء وحملهم على البحث البلاغى حملا شديداً، ذلك العامل الجديد هو القرآن.

والقرآن كتاب الإسلام ودستوره؛ فهو وسيلة المسلمين إلى التعبد، حين يقيمون به الصلاة، أو يتقربون بتلاوته إلى الله، وهو ركاز التعاليم الدينية، ومنهج الحياة الإسلامية، ومن آياته تستمدُّ تلك التعاليم، وتلتمس أعلام هذا المنهج، ثم هو معجزة النبى وآيته الكبرى على أنه رسول الله.

وقد نزل القرآن بلسان عربى مبين، وسمت آياته فوق الذُّرى من البلاغة، وماجت سطوره بأروع أساليب البيان. وإذا كان المسلمون الأولون قد سلمت سلائقهم فمكنتهم أن يفهموا كلام الله فى يسر، وأن يدركوا ماوراء التراكيب من كوامن الأسرار، وأن يستشعروا سر إعجازه عند سماعه، وأن يستعصموا بعقائدهم على الملحدين الملبسين فى الدين بمتشابهاته؛ إذا كان ذلك فقد نشأت فى حجر الإسلام أجيال تصعَّب عليهم كل ذلك أو تأبَّى؛ لأن الفطرة العربية قد وهنت فى نفوس العرب بما خالطوا الأعاجم، وابتعدوا عن مؤئل السلامة ومعدن الفصاحة، وعزت على غير العرب بما ارتضعوا من أفاويق العجمة فى اللبان.

لذلك اتجه العلماء إلى أن تربو فى الناس قوة الحس البلاغى، وأن يُعَوِّدوهم ذَوْق البيان السامى حتى لاتستغلق عليهم أساليب القرآن، ولا تَنْبهم عليهم مراميه، وكانت وسيلتهم إلى تلك التربية إثارة بحوث تقف الناسَ على أسرار الجمال القولى، وتهيئهم لإدراك ماوراء اللفظ من مزايا الأساليب.

* * *

وبتعدد الأسباب الدافعة إلى تلك البحوث تعددت مواطنها ، وتنوعت الصفات العلمية لمن شاركوا فيها ؛ فالمفسرون أسهموا فى ذلك الفضل بجهد عظيم، وأياديهم بيضاء ماثلة فيما خلفوا من كتب ، وسواء فى ذلك التفسيرات العامة والخاصة ، ومن أقدم نماذج الأولى كتاب « مجاز القرآن » لأبى عبيدة (المتوفى سنة ٢١٠ هـ) ومن أقدم نماذج الثانية — وهى التى تفسر نوعا خاصاً من الآيات كالمتشابهات ، وآيات الأحكام مثلا — كتاب « مشكل القرآن » لابن قتيبة (سنة ٢٧٠ هـ) .

والمتكلمون أو علماء التوحيد لايقل أثرهم فى ذلك عن المفسرين — إن لم يزد — فقد شاركت طوائفهم — على اختلاف نحلها — فى المباحث البلاغية ، وذلك بصدد كشفها عن سر الإعجاز ، كما يؤكد ذلك عبد القاهر فى كتابه « دلائل الإعجاز »

ومن عجب أن يذهب المتكلمون فى توجيه الإعجاز مذهبين متقابلين ، ثم يستعين كل فريق منهم على تقرير مذهبه ، ويتوسل إلى دعمه بدراسة فنون البلاغة .

فتدرسها جمهرتهم ممن تابعوا الجاحظ (سنة ٢٥٠) صاحب كتاب « نظم القرآن » ليؤكدوا أن إعجاز القرآن يرجع إلى سمو بلاغته ، وروعة بيانه ، ودقة نظمه

ويدرسها مَنْ دون هذه الجمهرة ممن شايعوا النَّظَّام أستاذ الجاحظ ليثبتوا رأيهم أن بلاغة القرآن فى طَوْق البشر ، وأن إعجازه كان بصَرْف الله العربَ عن معارضته مع أنها فى استطاعتهم .

ومن أقرب مايمثل هذين الجهدين المتقابلين فى سبيهما كتاب « إعجاز القرآن » للباقلانى (المتوفَّى فى سنة ٤٠٣ هـ) وكتاب « سر الفصاحة » لابن سنان الخفاجى (المتوفَّى فى سنة ٤٦٦) أولهما يدرس البلاغة انتصاراً لرأى الأولين ، وثانيهما يدرسها حمية لمذهب الصَّرْفة كما يقول فى المقدمة .

وللمتكلمين جهود أخرى كتلك التى كانوا يقدمونها لناشئتهم فى تدريبهم على الخطابة .

والنحاة الأولون كانت لهم مشاركة قوية فى البحوث البلاغية ، تشهد بها كتبهم الحققة لمعنى النحو عندهم ، كما يقرره ابن جنى فى تعريفه أنه « انتحاء كلام العرب فى تصرفه من إعراب وغيره . ليلتحق من ليس من أهل العربية بأهلها فى الفصاحة » فما كانت أنظارهم تقف عند تغير أواخر الكلم لتغير العوامل ، بل كانوا يفاضلون بين الأساليب ، ويبينون لكل تركيب موضعه ودرجته ، وما تنسمت مسائل علم المعانى أولى نَسَمات الحياة إلا فى كتب النحاة ، وعنهم أخذها عبد القاهر — وهو منهم — و بنى منها أكثر ما فى « دلائل الإعجاز » مما سماه « النظم » وعرفه بأنه « توخّى معانى النحو فى الكلام » ولذلك سماه المتأخرون « المعانى » .

والفقهاء والأصوليون كذلك كانت لهم جهود بلاغية تعين على استخراج المعانى من التراكيب ، وهى تسمى فى كتبهم « المبادىء اللغوية » وقد كان اشتغالهم بها منذ قديم . ومن شاء فليرجع إلى كتاب « الأم » للإمام الشافعى (سنة ٢٠٤) أو إلى كتبهم فى تفسير آيات الأحكام .

* * *

ثم نعود مرة أخرى إلى النقد ، وقد وقف بنا حديثه آنفا عند ظهور الإسلام ، وعرفنا أن نشاطه تضاعف عما كان فى الجاهلية ، وننبه الآن إلى أن هذا النشاط كان يتمشى دائماً مع النهضة الأدبية ، ولذلك ازدادت حدته فى سوق الشعر النافقة أيام الأمويين ، ولم يعد الاشتغال بالنقد قاصراً على الأدباء ؛ إذ كان اشتغال المسلمين بالعلم قد بدأ ، ودخل العلماء ميدان النقد منذ أواخر القرن الأول ، فتراءى النشاط النقدى ، وفيه اتجاهان :

١ — اتجاهُ الشعراء ومن إليهم من الأدباء ، وعماده الذوق والفطرة ، و بذلك كان امتدادًا لعمل السابقين .

٢ — اتجاه العلماء من نحاة ، ولغويين ، ورواة ، وهؤلاء يحكمون مع الذوق

كل ماتقرر لديهم من أصول اللغة ، والنحو ، والعروض ، وعلى أيديهم اتسعت جوانب النقد ، ومال إلى التحليل والتعليل ، وشواهد ذلك كثيرة فيما يرويه المرزبانى فى كتابه « الموشح » .

* * *

وحينما جاء القرن الثالث الهجرى ، كان النقد قد خطا إلى الأمام ، فأخرج هذا القرن عدة كتب ، نشير إلى بعض مابقى منها . مثل كتاب « طبقات الشعراء » لابن سلام سنة (٢٣٢) و « الشعر والشعراء » لابن قتيبة سنة (٢٧٦) و « محاسن شعر أبى تمام ومساويه » لابن المعتز (سنة ٢٩٦) و « قواعد الشعر » لثعلب سنة (٢٩١) وهى كتب يتضح منها أنها تقدمت بالنقد ، وسرت فيها بوادر من الروح العلمية متجهة إلى التنظيم والتحديد ، ومحاولة التماس الضوابط والرسوم .

وقبل أن نترك حديث هذا القرن ، ننبه إلى ماشهده من صراع عنيف بين أدبائه والنقاد من علمائه ؛ فقد كان واضح الآثار فى النقد والبلاغة . وحسبه أن يكون من نتائجه كتاب « البديع » لابن المعتز .

* * *

وفى القرن الرابع بلغ تقدم النقد أقصى مَدَاه ، وكثرت فيه المؤلفات ومن بينها أشهر ماعرفه تاريخ النقد العربى ، مثل « عيار الشعر » لابن طَبَاطَبَا العلوى و « نقد الشعر » و « نقد النثر » لقدامة بن جعفر (سنة ٣٣٧) و « الموازنة » للآمدى (سنة ٣٧١) و « الوساطة » للجرجانى (سنة ٣٩٢) وهى كتب تمتاز عن سوابقها بالصبغة العلمية فى تحديد القواعد والضوابط ، ومحاولتها استيعاب عناصر النص الأدبى ببحث أسباب الحسن والقبح فيها ، ومجاوزتها بالنقد جانب التقدير إلى جانب التوجيه ، وهى خطوة هامة فى طريق صَوْغ القواعد وتأصل الأصول .

* * *

وحسبنا هذا القدر من حديث النقد ، فقد آن لعلوم البلاغة أن تتشخص

فى كتبها ، وأن يكون لها كيان مستقل ، وأن تبدأ توثُّبها وتواصله حتى تكون فى كتبها غنية عن كتب النقد العام .

حسبنا هذا الآن . ولنتجه إلى المسائل البلاغية ، نبحث عنها فى غير هذه المظان ، نبحث عنها مستقلة فى كتبها ، ونحاول أن نعرف متى بدأ ذلك ؟ وكيف كان ؟ وإلى أى مَدًى بلغ ؟ .

* * *

حين كانت تجرى هذه الوجوه المختلفة من النشاط السابقِ حديثُه ، كانت هنـاك محاولات تسعى إلى الإفادة منها فى وضع مؤلفات تعين دراستُها على إنشاء الأساليب العالية ، وعلى تفهمها ، وكانت تظفر بأسماء مختلفة من « الفصاحة » و « البلاغة » و « البيان » ولـكنها محاولات لا يغنى الجهد فيهـا عن جهود الطوائف التى أسلفنا ، ولا يجزىء حديثها فى تاريخ البلاغة عن تلك الأحاديث .

وأقدم مابقى من تلك المحاولات كتاب « البيان والتبيين » للجاحظ ، وهو يقوم على ثلاثة أجزاء لو صفيت من استطرادات الجاحظ الواسـعة الخَطْو ؛ مابقى للبلاغة غير حيز ضيق كل الضيق ، فلم تك أكثر من إرشادات عامة فى الفصاحة ، والبلاغة ، وطائفة من الاصطلاحات البلاغية ، يقع بعضها موقعه ، ويقع بعضها بعيداً عما عرف له عند المتأخرين .

ونستطيع أن نضع بعده كتابى قدامة السالفين إن أغضينا النظر عن كلمة « نقد » الداخلة فى تركيب اسميهما ، ونظرنا إلى صراحة صاحبهما فى مقدمة « نقد النثر » أنه يعارض به « البيان والتبيين » وهما على أى حال أنْضَجُ من كتاب الجاحظ ، ومضمونهما البلاغى أكثر من مضمونه ، وإن كان لايزيد كثيراً عن معارف المعاصرين لقدامة من النقاد والعلماء ، ووثبته نحو التنظيم والتنسيق واضحة للعيان .

ويجىء بعدهما فى الزمن كتاب « الصناعتين » لأبى هلال العسكرى (سنة

٣٩٥) وهو أول كتاب يعمل فى تبويبه وطريقة بحثه ملامح تباعده بعداً ما عن كتب النقاد ، وتقربه قرباً ما من كتب البلاغيين اللاحقين .

ثم تجىء الحلقة الناجحة ، والوثبة الفنية ، تلك التى حققها عبد القاهر الجرجانى (سنة ٤٧٤) بكتابيه « دلائل الإعجاز » و « أسرار البلاغة » فقد بنى بهما أول صرح تفخر البلاغة بوضع اسمها عليه ، وقدم بهما شهادة استحقاقه الإمامة التى أقر له بها البلاغيون .

* * *

وكتابا عبد القادر – وإن لم يستوعبا كل ما حوته كتبُ المتأخرين من بحوث – يحويان أبرز ما يحتاجه طالب البلاغة ، ولو أنه حاول الشمول والاستيعاب على طريقته – التى يفضلها العارفون – ما وسعته المجلدات الضخام ، وحسبه أنه شرع النهج ، ومهّد الطريق .

ويمتاز عبد القاهر فى كتابيه بأمور ، منها :

١ – فَرْقُه بين الأنواع المتشابهة بحدود تخرجها من الالتباس ، وتميزها نوعا عن نوع .

٢ – وسبقه إلى تفصيل القول فيما سماه « النظم » وسماه المتأخرون « المعاني » .

٣ – وتعمقه ودقة بحثه فى الكشف عن الأسباب الحقيقية لجمال القول وقبحه .

٤ – وقوة روحه الأدبية المتجلية فى أسلوبه الرائع ، وفى غزارة شواهدهِ المنتقاة ، وفى تحليله تلك الشواهد تحليلا يصقل الحس ، ويصفى الذوق ، ويربي ملكة النقد .

* * *

وفى الوقت الذى ألف فيه عبد القاهر كتابيه بشرق الوطن الإسلامى ؛ ظهر كتابان آخران بالجهة الأخرى منه ، وهما كتاب « العمدة » لابن رشيق القيروانى (سنة ٤٥٦ هـ) وكتاب « سر الفصاحة » لابن سنان الخفاجى (سنة ٤٦٦) وهما كتابان يختلف كل منهما عن صاحبه وعن كتابى عبد القاهر فى الترتيب والتبويب ، ولكنهما يتسمان بطابع واحد ، غايته إشراق العبارة وسهولتها ،

وغزارة الشواهد، والتحليل الأدبى الناقد المقارن، والبعد عن التفلسف ما أمكن، وقد غلب هذا الطابع على مؤلفى الشام ومصر وما وراءها من غربىّ الرقعة الإسلامية كما هو واضح فى كتابى « المثل السائر » و « الجامع الكبير » لمؤلفهما ابن الأثير (المتوفى سنة ٦٣٧ هـ).

* * *

أما الجانب الآخر فى العراق وفارس وما يليهما من شرق؛ فقد أخذ مؤلفوها أنفسهم بتعمق البحث، والميل إلى التفلسف، وإيثار التركيز، والاقتصاد فى التعبير، ويظهر ذلك فى تلخيص الرازى (سنة ٦٠٦) لكتابى عبد القاهر بكتابه « نهاية الإيجاز، ودراية الإعجاز، من أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز » وهو فيما نعتقد البوتقة التى تحولت فيها بلاغة عبد القاهر إلى بلاغة السكاكى (سنة ٦٢٦ هـ).

* * *

وبلاغة السكاكى تشغل القسم الثالث من كتابه « المفتاح » وقد استدرك فيها ما فات عبد القاهر، وتمم ما بدأه من تمييز الأنواع الملتبسة، وتقرير القواعد التى جعلت من البلاغة علما ثابت الأصول، كل ذلك مع ترتيب المسائل وتبويبها تبويباً أقرب إلى الدقة والإحكام.

غير أنه حاط بحوثها بالجدل والفروض الخيالية، وآثر إعمال العقل فى استنباط القواعد على استمدادها من الشواهد العربية المختارة، وأسرف فى تدقيق العبارة إسرافاً جفَّ معه أسلوبه، واستغلق فهمه فى أكثر الأحايين على غير المتعمقين.

* * *

وقد آثر الخطيب القزوينى (سنة ٧٣٩ هـ) السكاكيَّ فائتمَّ به، واعتمد على عمله حين ألف؛ لأسباب ذكرها فى مقدمة التلخيص، من حسن ترتيبه، وتمام تحريره، وجمعه للأصول. وهى أسباب تجد مبرراتها إذا نحن قايسنا بين بلاغة المفتاح وبلاغة المثل السائر، بالرغم من أن مؤلفيهما كانا متعاصرين.

وقد بدأ الخطيب عمله البلاغى باختصار بلاغة السكاكى فى كتاب « تلخيص

المفتاح » فهذبه ، وعدل ترتيبه ، وزاد فيه بعض الزوائد ، وأغناه بالشواهد .

ويبدو أنه تابع معاصريه فى إخراج الكتاب الواحد على صور متعددة ، أو أن عمله فى التلخيص لم يقع منه موقع الرضى ، فشفعه بكتاب « الإيضاح » مراعياً فيه — كما يقول فى المقدمة — أن يكون كالشرح له ، وأن يكون جامعاً زبدة ماترك فى التلخيص من مفتاح السكاكى ، وما أغفل المفتاح من كتابى عبد القاهر ، وما تيسر النظر فيه من كلام غيرهما ، وما أدى إليه فكره ولم يجدهُ لغيره .

وقد جاء الإيضاح كما أراد صاحبه ، وأسلوبه — وإن كان أدنى من أسلوب عبد القاهر — أفضل من أسلوب السكاكى ، وعبارته أسهل ، وشواهده أغزرُ .

والذى لا شك فيه أن اتجاه الخطيب إلى الزمخشرى (سنة ٥٣٨) واعتماده عليه فى تخريج الشواهد القرآنية ، وفى تحرير المشاكل البلاغية الغامضة ؛ لا شك أنه أفاده أعظم الفوائد ، ومكنه أن يقف فى أكثر المسائل الخلافية موقف الحكم الفَيْصَل .

وقد كان لكتاب الإيضاح هذا الفضلُ كلُّ الفضلِ على سعد الدين التفتازانى (سنة ٧٩١) فى إخراج كتابه « المطول » شرحاً لتلخيص المفتاح ، فأكثَرُ ماله قيمة مما توسع به فى هذا الشرح — زيادة عما فى شرحه الثانى « المختصر » — فمن الإيضاح مستمدُّه ، وفضله إلى الإيضاح يعود .

* * *

وبعد الخطيب توقَّفت الجهود ، ودار تعب المؤلفين حول كتب الخطيب ، تطويلا ، أو اختصاراً ، أو مناقشة للعبارة ، ولم يجدَّ بعد ذلك ما يستحق الانتباه إلى عهدنا هذا ، إلا ما يحاوله معاصرونا لتجديد النقد والبلاغة ، تجديداً يُفيدُ من دراستهما التاريخية ، ومن بعض المناهج الغربية ، ولكنها لم تصل حدَّ الاستقرار؟ .